سيطرة السلاجقة على بلاد الشام

خلف طغرلبك على العرش السلجوقي ابن اخيه الب ارسلان (455 هـ 465 هـ)، وخطب له ببغداد في شهر ربيع الاخر من سنة 456 هـ، ولقب بالسلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة أبو شجاع الب ارسلان محمد بن داود ، وانصرف ارسلان للعمل على تحقيق أهداف السلاجقة في التوسع وبناء دولة مترامية الأطراف. وكان لا يقل جدارة عن عمه طغرلبك، وقد هيأت له الظروف شخصية كان لها أثر الاكبر في رسم السياسية السلجوقية تلك هي شخصية وزيره(نظام الملك)، وتمكن الب ارسلان في فترة وجيزة من فرض سيطرته على البلاد والبيعة بولاية العهد لولده ملكشاه من بعده .

وكان توسع السلاجقة في البلاد الواقعة بين بحيرة وان وارومية واستيلائهم على جورجيا وبلاد الأرمن قد اثار مخاوف الروم البيزنطيين، فهاجم الامبراطور رومانوس الاطراف الشمالية من بلاد الشام، فدخل منبج واستباحها وقتل عدد كبيراً من أهلها، كما تغلب على محمود بن مرداس امير حلب ومن انضم اليه من قبائل العرب ثم عاد إلى القسطنطينية ووجد الب ارسلان في غزو رومانوس لبلاد الشام الفرصة المناسبة لتحقيق امل السلاجقة بتحرير بلاد الشام من النفوذ الفاطمي، فشرع في التحرك نحو حلب في سنة 463 هـ واقام على حصارها مدة ثم اضطر اميرها محمود بن مرداس إلى الخضوع وتقديم الولاء للسلطان السلجوقي، فرحل الأخير عن المدينة في رجب من عام 463 هـ .

وكان الأمير اتسز بن ارق الخوارزمي قد تمكن في السنة نفسها من دخول مدينة الرملة ، ثم سار إلى بيت المقدس وانتزعها من ايدي الفاطميين، واستولى على ما جاورها من اعمال عدا عسقلان، وقصد دمشق وحاصرها الا انه لم ينجح في الاستيلاء عليها .

ثم حقق الب ارسلان انتصارا رائعا على الروم في موقعه ملاذكرد في عام (463 هـ/ 1071 م) ، وسحق السلاجقة معظم الجيش البيزنطي، ووقع الامبراطور رومانوس نفسه في الاسر. ثم أطلق سراحه بعد ذلك لقاء فدية كبيرة من المال مقدارها (الف الف دينار)، وعلى أن يطلق من لديه من اسرى المسلمين في بلاده. كما تعهد بعدم التعرض لأراضي الخلافة العباسية، وتم عقد هدنة بين الجانبين أمدها خمسون عاما . وترتب على هزيمة الروم هذه نتائج خطيرة، أهمها ضياع الأجزاء الشرقية من بيزنطة التي لم تعد تستطيع الصمود في وجه التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى، كما كانت مقدمة لسقوط دولة الروم نفسها في أيدي الأتراك العثمانيين فيما بعد.

ولم يطل العهد بالسلطان الب ارسلان اذ مالبث أن لقي مصرعه بيد احد الثائرين في (العاشر من ربيع الأول سنة 465 هـ) . وتولى عرش السلاجقة ولده وولي عهده ملكشاه الذي خطب له ببغداد في رجب من السنة نفسها .

وسار ملكشاه على سياسة ابيه في التوسع وفرض السيطرة السلجوقية على جميع انحاء الخلافة العباسية وجعل في مقدمة أهدافه القضاء على الفاطميين واسترجاع ما فقده العباسيون من البلاد، فبدأ ببلاد الشام تمهيدا للاستيلاء على مصر والقضاء على الحكم الفاطمي هنالك ، وقد سبق لملكشاه آن توجه لاخضاع بلاد الشام خلال حكم والده ألب ارسلان في سنة 463 هـ واسند الى احد امرائه وهو اتسز الخوارزمي هذه المهمة ، فدخل الرملة وبيت المقدس، كما حاصر دمشق الا انه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وفي سنة 467 هـ عاد الأمير اتسز الخوارزمي (التركماني) إلى دمشق فحاصرها في رمضان، الا انه لم ينل منها شيئا، فرفع الحصار عن المدينة في شوال من السنة المذكورة ثم عاد لحصارها في شعبان من السنة التالية 468 هـ بعد أن بلغه اضطراب الأمور السياسية فيها نتيجة هرب اميرها المعلى بن حيدرة ، فشدد الحصار حول المدينة وضيق على أهلها فاضطروا إلى التسليم ودخلها في ذي القعدة من سنة 468 هـ وخطب للخليفة المقتدى بأمر الله، كما استولى اتسز على عدة مدن من بلاد الشام .

وبعد أن أطمئن القائد التركماني اتسز إلى سلامة موقفه في بلاد الشام، عزم على قصد الأراضي المصرية، فجهز جيشا من التركمان والعرب والأتراك، وسلك طريق الساحل الشامي بعد أن أغراه ابن بلدكوز بفتح مصر. وكان الأخير قد احتمى بأتسز اثر قدوم بدر الجمالي إلى مصر وتوغل اتسز داخل الأراضي المصرية دون أن يواجه مقاومة تذكر، ثم عسكر خمسين يوما في الدلتا بدلا من أن يواصل زحفه الى القاهرة وكان بدر الجمالي منشغلا آنذاك باخماد بعض الثورات في بلاد الصعيد، فلما بلغه قدوم اتسز إلى مصر استعد لمواجهته، واشتبك معه في معركة عنيفة انتهت بهزيمة اتسز و فراره الى غزة، ثم رحل إلى الرملة حيث التحقت به عساكره وقفل عائدا إلى دمشق .

وكانت الهزيمة التي مني بها اتسز حافزا لبعض المدن الشامية لتعلن العصيان ضد السيطرة السلجوقية والعودة الى دائرة النفوذ الفاطمي، وكان السلطان ملكشاه قد اقطع اخاه تتش بلاد الشام في سنة 470 هـ، واذن له بالاستيلاء على البلاد المجاورة، فسار تتش في طليعة عام 471 هـ قاصدا حلب وفرض عليها حصارا شديدا، فانتهز الفاطميون هذه الفرصة وعملوا على استعادة ما فقدوه من مدن الشام، فأرسل بدر الجمالي جيشا إلى دمشق، تمكن من الاستيلاء على بعض القرى والضياع المجاورة لها واضطر اتسز إلى الاستنجاد بتاج الدولة تتش، فسارع لنجدته ، فلما علم الفاطميون بحركته رفعوا حصارهم عن دمشق وعادوا إلى مصر سالكين الطريق الساحلي، ولما وصل تتش الى مشارف دمشق، خرج اتسز لاستقباله، غير أن تتش لم يلبث غدر به، متهما اياه بالتقاعس عن الخروج لاستقباله، فأمر بقتله، ودخل دمشق، وأحسن إلى أهلها، واتخذها مقرا لسلاجقة الشام .